قريش ومخزوم

كانت قريش موئل الثقافة العربية من أنحاء الجزيرة كلها بين حاضرةٍ وبادية، ومن قديم عصورها إلى حديثها.

لأنها كانت وسطا بين الحضارة والبداوة، وكانت تقيم فى عاصمة الحجاز وإلى جوار الكعبة التى يحج إليها العرب، تبركا بحرمتها، ولياذا[1] بأصنافها، ويحملون إلى أسواقها أزواد الأدب والشعر والحكمة، كما يحملون إليها أزواد[2] القوت وسلع التجارة.

وكانت قريش تنتقل إلى بلاد العرب كما يتنقل العرب إليها من بلادهم، فكان لها رحلتا فى الشتاء والصيف: إحداهما إلى اليمن والأخرى إلى الشام، وكانت تضيف إلى ما تعلمه بالسماع والرواية علم المشاهدة والمراس[3]، حيثما نزلت فى طريقهما من ديار العرب أو من ديار الروم والحبشة، وسائر الأمم الأعجمية كما كانت تسميها.

والعرب من دأبهم حفظ السير ورواية الأحاديث والتنقيب عن الأخبار والطوايا[4]، لأن الاستطلاع من طبيعة سكان الصحارى، وتتوقف سلامتهم أحيانا على خبر يعلمونه فى أوانه كما تستهدف[5] أرواحهم أحيانا للخطر العظيم من جراء طارئ داهم تفوقهم الحيطة له فى حينه، ولم يزل أبناء القبائل على ولعهم المأثور بالسير والأخبار لغير هذه الضرورة التى يدعوهم إليها حب الأمن والسلامة. فهم غيورون على تراث الآباء والأجداد تفاخرا بالنسب العريق وتصحيحا للعلاقات وتمييزا للأقربين والبعداء ومع هذا الولع

---

(١) لياذا: لجوءا، تقول (لاذ به) أى لجأ إليه وعاذ به.

(٢) أزواد: جمع زاد. (٣) المراس: الممارسة والخبرة.

(٤) الطوايا: جمع طوية وهى الضمير، وقد يقصد به هنا بواطن الأمور.

(٥) تستهدف: تتعرض.

الأصيل فى الطبيعة العربية باستقصاء الخبر، يصعب على الذهب أن يتخيل أن قريشا تجهل شأنا من شئون الثقافة العربية، وهى تقيم فى مثابة[1] الجزيرة كلها وتسهر على عاصمة العرب، وتجوب أنحاء هذا الوطن الكبير من شماله إلى جنوبه ومن جوبه إلى شماله، وتتابع العصور حقبة بعد حقبة وهى فى مرقبها الذى تطل منه على كل ما يعنيها..

فقلما غاب عنها علم عربى وصل إليه أبناء الحواضر والبوادى باجتهادهم واختبارهم، أو صولوا إليه بالقدوة والسماع عن الأمم الأجنبية..

وقلما خفى عنها فن من فنون ثقافة العرب فى مصالح السلم والحرب، أو معارض السياسة والشئون الاجتماعية.

ونظن فى تقدير معارفهم الحربية، وقد كانت كما رأينا كفء لحضارة الدولة الفارسية وتجارب قوادها وأساورتها[2] وكذلك كانت لهم فى السياسة والنظم الحكومية خبرة لا يستخف بها من ينفذ إلى بواطنها، فهى لا تبلغ أن تكون فلسفه مشروحة ومذاهب مفصله على مثال النظم العصرية، ولكنها كذلك لا تنزل إلى الفوضى ولا إلى الغريزة الهمجية التى لا مساك لها[3] ولا تدبير فيها.

وأوجز ما يقال عن خبرتهم الحكومية أن العالم القديم لم يعرف قط نظاما من أنظمة الحكم إلا كان للعرب نموذج منه يوافق مصالحهم وعقائدهم ويجرى على عاداتهم وخلائقهم.

عرفوا نظام الإمارة التى ينفرد فيها الأمير برأيه ويستأثر فيها بشريعته وقضائه...

---

(١) المثابة: الموضع الذى يثاب إليه (أى يرجع) مرة بعد أخرى: ومنه سمى المنزل (مثابة).

(٢) أسورتها: جمع أسوار (بكسر الهمزة) وهو قائد العجم كالأمير فى العرب.

(٣) لامساك لها: يعنى: لا ضابط لها.

وعرفوا نظام الإمارة التى يتولى فيها الحكم نائب عن الأمير يفصل فى قضايا الرعية بمعونة ذوى الرأى منها "إلا أن يكون غزو أو قتال" فهو باسم الملك دون غيره، وهو النظام الذى جرى عليه أهل الحيرة زمنا مع ملكهم المنذر ونائبه بن حماد من بنى أيوب.

وعرفوا نظام الإمارة التى يختار أميرها من أمة أخرى كما تنتقل الأسر الأوروبية اليوم من مواطنها إلى الموطن الذى تحكمه بالمصاهرة أو بالاتفاق بين الدولتين. وعلى هذه السنة اجتمع البكريون حين غلبهم سفهاؤهم وأكل قويتهم فقال شيوخهم: "لا نستطيع دفع تلك ذلك إلا أن تملك علينا ملكا نعطيه الشاة والبعير، فيأخذ للضعيف من القوى ويرد على المظلوم من الظالم، ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون، ولكنا نأتى تبعا فيختار لنا" فقصده فملك عليهم حجرًا أميرًا كندة، وهو أبو امرئ القيس الشاعر المشهور.

وعرفوا الحمايات على أنواعها: حماية الإمارة التى تستعين بجيش أجنبى، وحماية الإمارة التى تعتمد على جيشها، وحماية الإمارة التى تدين لدولة واحدة، أو تدين لدولتين. كما حدث ذلك فى مثلك اليمن بين الحبشة وفارس وسادات البلاد.

وعرفوا رئاسة القبائل المنفردة ورئاسة القبائل المجتمعة إلى نسب واحد، ورئاسة الرحل الذين يرعون الإبل والشاء، ورئاسة أهل المدر[1] الذين يغرسون المروج والبساتين ويزاولون التجارة من موسم إلى موسم..

وكانت قريش تسمع بهذا النظم وتشاهدها فى مواضعها وتقتبس منها ما هى حاجة إليها، ولكنها لم تأخذ بنظام الإمارة لأن التنافس بين بطونها يمنعها أن تتفق على ملك من إحداها، ولم تتعرض لنظام الحماية لأنها كانت بنخوة

(١) المدر: القرى، والعرب تسمى القرية مدرة.

من سلطان الدول الأجنبية، ولم يوافقها نظام أهل الوبر[1] ولا نظام أهل المدر لأنها كانت وسطا بين الحضارة والبداوة كما قدمنا، وكانت ترعى مصالحها ومصالح الوفود التى تقبل إليها حاجة أو متنجرة وليست هى من عشائرها التى تقبل منها حكم الشيخ فى قبيلته على أية صفة من صفاتها.

فاختارت لها نظاما فريدا يوفق بين هذه الأطوار الاجتماعية المختلفة ولعله أشبه النظم بنظام بين الرومان الأقدمين، وإنما يؤول الرأى الأخير فيه إلى مجلس يجتمع من رؤساء كل بطن فى القبيلة، ويوشك أن يكون أمرة شورى أو على صورة الشورى التى ترضى بالجاملة وإن لم يكن فيها رضا بالحقيقة. إذ الحقيقة أن المرجع الأخير إلى أقوى الأقوياء من أولئك الزعماء، كلما حزب الأمر[2] وتشبعت الآراء.

ومن زكانة[3] الحكم عندهم أنهم فهموا مناط الرئاسة القرشية التى يدين بها حجاج البيت الحرام وقصاد مكة من الحضر والبادية، وهى الدين واللغة والتجارة المشتركة.

فحفظوا مناسك الكعبة، وجعلوا أسواقهم مغرضا للبلاغة الشعرية والخطب المرة، وتعاهدوا على ضمان الثقة بالتجارة كلما غدر غادر بذمتها، أو اعتدى معتد على حقوقها.

واحتالوا على التوفيق بينهم بتقسيم المفاخر والمراسم على بطونهم وزعمائهم حسب أقدارهم ومزاياهم، فانتهى الشر إلى عشرة بطون هم: هاشم وأمية ونول وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم، فكانت لهاشم سقاية الحاج، وكانت الأمية راية الحرب يخرجها عند القتال

---

(١) أهل الوبر: البدو.

(٢) حزب الأمر: تقول (حزبهم أمر) أى أصابهم، والمقصود (كلما قامت مشكلة).

(٣) الزكانة: الفطنة.

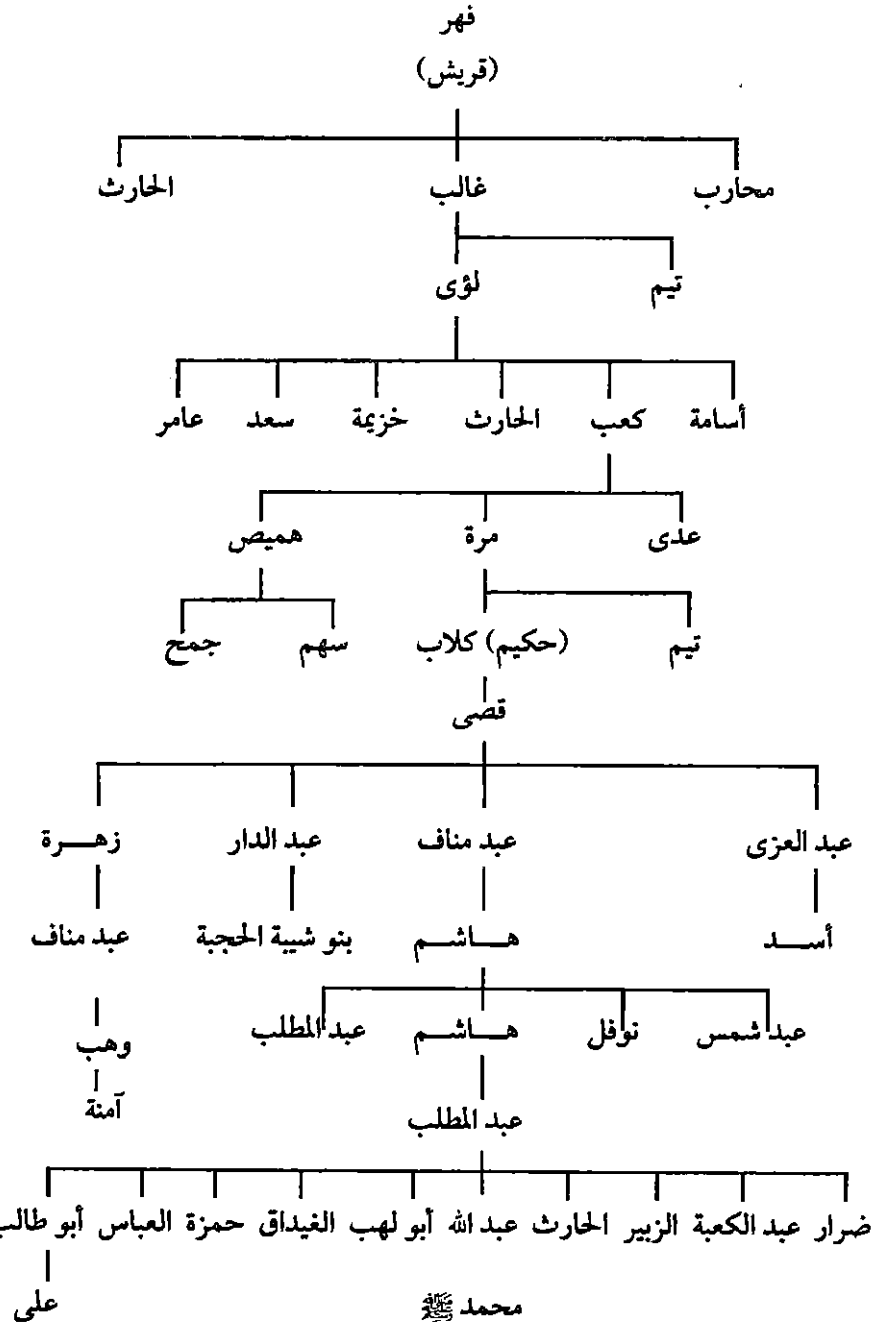
فهر
(قريش)
الحارث
غالب
محارب
تيم
لؤى
عامر
سعد
خزيمة
الحارث
كعب
أسامة
عدى
مرة
هميص
جمح
سهم
(حكيم) كلاب
تيم
قصى
زهـــرة
عبد الدار
عبد مناف
عبد العزى
عبد مناف
بنو شيبة الحجبة
هـــاشـــم
أســـد
وهب
آمنة
عبد المطلب
عبد شمس
نوفل
هـــاشـــم
عبد المطلب
ضرار
عبد الكعبة
الزبير
الحارث
عبد الله
أبو لهب
الغيداق
حمزة
العباس
أبو طالب
على
محمد ﷺ

نسب قريش

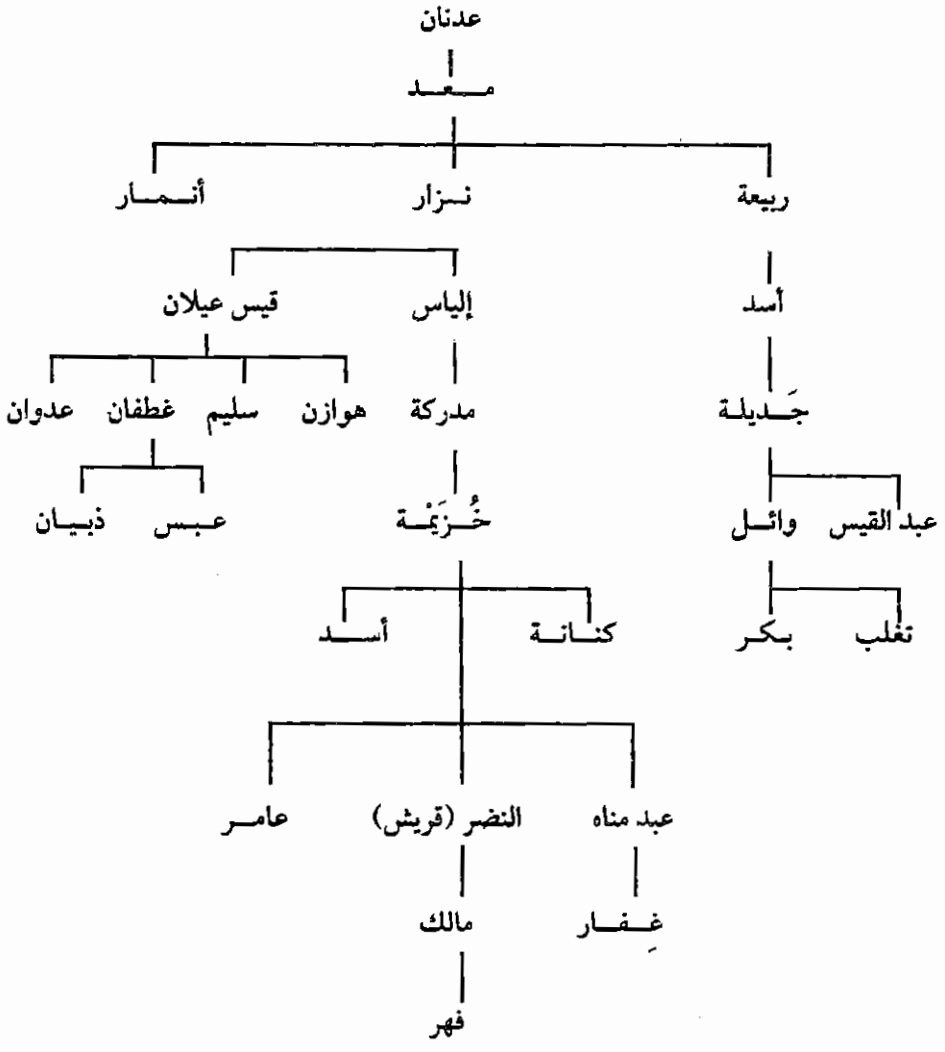

(قريش على رأي آخر)

شعب عدنان

ليسلموها إلى قائده المختار، وكانت لنوفل الرفادة وهى إعانة الحجا المنقطعين بالمال، وكانت لعبد الدار السدانة[1] والحجابة واللواء، وكانت لنبى أسد المشورة أو رئاسة مجلى الشورى فى مهمات الأمور، وكانت لبنى تيم الديات[2] المغارم، وكانت لنبى مخزوم القبة وهى مجتمع الجيش والأعنة وهى قيادة الفرسان، وكانت لنبى عدى السفارة، ولنى جمح الأيسار والأزلام[3]، ولنبى سهم الحكومة والأموال المحجرة[4]، وظلوا يتولونها جيلا بعد جيل إلى ظهور الإسلام.

ولم يكن لهذه "الوظائف" الموزعة شأن واحد فى جميع الأوقات والأحوال، بل كانت تعلو وتهبط على حسب الزعيم الذى يتولاها وعلى حسب القوة التى يكون عليها بيته عند ولايته إياها. ولكننا إذا نظرنا إليها نظرة مجملة وجدنا مهما ما كان يقصد به "جبن الخاطر" والإرضاء، وما كان يشبه الوظائف الشورية أو الإدارية الثانوية فى حكومتنا الحاضرة، ولم نجد بينها "سلطات فعالة خليقة أن تتعاقب مع الزمن غير ثلاث متفرقات، وهى السلطة الروحية لهاشم وعبد الدار، والسلطة السياسية لأمية، والسلطة العسكرية لمخزوم.

من بنى مخزوم هؤلاء نشأ خالد بن الوليد - بطل هذا الكتاب - وكانت نشأته فى أعرق بيوتها وأعلاها وأشرفها وأغناها، فلم يكن من أبوته أو عمومته إلا رئيس لا تعلو مكانته مكانة أحدٍ من رؤساء الجاهلية..

كان جده المغيرة بن عبد الله، الذى كان الرجل من بنى مخزوم يؤثر أن ينسب فيسمى المغيرى تشرفا بالانتساب مخزوم يؤثر أن ينسب إليه فيسمى المغيرى تشرفا بالانتساب إلى الفرع الذى أناف على الأصول..

---

(١) السدانة: خدمت الكعبة وبيت الأصنام.

(٢) الديات: جمع دية، وهى المال يعطيه أهل القاتل.

(٣) الأيسار والأزلام: السهام التى كانت العرب يستخدمونها فى الميسر "القمار".

(٤) الأموال المحجرة: التى سموها لألهتهم.

وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد، لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة تكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى.

وكان عمه هشام قائد بنى مخزوم فى حرب الفجار[1]، وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام، ولم تقم سوقا ثلاثا لحزنها عليه..

وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرب العرب فى زمانه، له بيت للضيافة يأوى إليه من شاء بغير استئذان.

وكان عمه أبو حذيفة أحد الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود إلى موضعه من الكعبة كما أشار النبى عليه الصلاة والسلام قبل الدعوة الإسلامية..

أما الذى فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين آذن التنافس بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من أعمامه، وهو أبو أمية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما جاء فى بعض الروايات. فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم إلى أول داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر إلى مكانه، فارتضوا مشورته وتم صواب المشورة بتوفيق البشارة النبوية قبل إهلالها على العالم بسنين. ولقب أبو أمية زاد الراكب لأنه كان يكفى أصحابه فى السفر مئونتهم فلا يتزودون بزاد.

ويظهر أن بنى مخزوم هؤلاء كانوا فى ثروتهم وعدتهم وبأسهم أقوى البطون القرشية حين ينفرد كل بطن منها عن سائر بطونها، ولكنهم لم يستأثروا بالزعامة القرشية لأنهم كانوا ينافسون بنى هاشم وبنى أمية وبنى عبد الدار، وهم ثلاثة بطون قوية يلتقون فى جد واحد أقرب من الجد الذى يجمعهم ببنى مخزوم، وهو مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر جد قريش أجمعين.

---

(١) حرب الفجار: كانت بين قريش، وقيس عيلان، وقد حضرها النبى ﷺ وهو صبى، وسميت كذلك لأنهم فجروا فيها، إذ أنهم تقاتلوا فى الشهر الحرام.

وقد تبينت رجاحتهم هذه فى مواقف كثيرة قبل الإسلام وبعده. فاضطلعوا وحدهم ببناء ربع الكعبة بين الركنين الأسود واليمانى، واشتركت قريش كلها فى بناء بقية الأركان..

وكان لنبى مخزوم وحدهم فى وقعة بدر ثلاثون فرسا من مائة فرس لقريش كلها، ومائتا بعير وأربعة أو خمسة آلاف مثقالٍ من الذهب غير الأزواد والأمداد.

فلا جرم[1] يعظم على نفوسهم أن يغلبهم منافس على الشرف والعزة، وأن يحوزوا كل ما حازوه من الرجال والأموال ثم تشى كفتهم[2] مرجوحة فى ميزان الفخار..

لا جرم يأخذون الأمر مأخذ الأنفة والختزوانة[3] بينهم وبين بنى عبد مناف حين تظهر النبوة فى هؤلاء ولا تظهر فيهم.

وقد أخذوها هذا المأخذ حين قال أبو جهل: "تنازعنا نحن وبنو عبد مناف: أطعموا فأطمعنا، وحملوا فحملنا[4]، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان، قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء.. فمتى ندرك هذه؟"

وإنما قال أبو جهل "بنو عبد مناف" ذهابا إلى الجد الذى يجمع هاشما وأمية وعبد الدار، كأنه يستعلى فى كبريائه أن ينافس هاشما وحدها دون أن يصعد إلى أبيها الذى يجمع بينها وبين غيرها وكان الوليد بن المغيرة يزعم أنه هو أحق الناس بالنبوة والقرآن، ويقول: "أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش ويدها؟".

---

(١) لا جرم: حقا.

(٢) تقول (شال الميزان) أى ارتفعت إحدى كفيته، فمعنى (تشيل كفتهم) ينخفض مقدارهم، ويفضلهم غيرهم. (٣) الختزوانة: التكبر.

(٤) حملوا فحملنا: من الحمالة (بالفتح) وهى الكفالة، أى كفلوا الناس وكفلناهم.

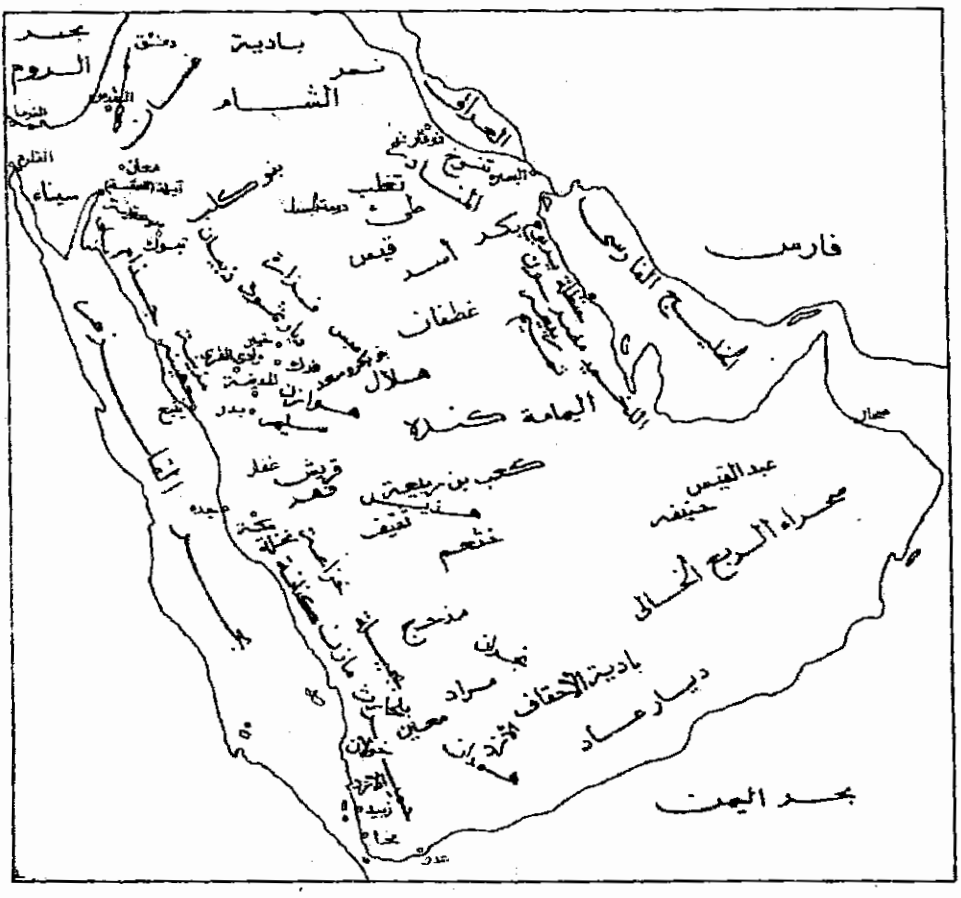

القبائل العربية فى صدر الإسلام

ففى ذلك يقول القرآن الكريم: "وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريبتين عظيم"

ونحن نعلم الآن أى عقبة كانت هذه الخنزوانة المخزومية فى طريق الإسلام إذ نرجع إلى الآيات التى نزلت فى رؤسائهم ووصفت ما كان من عنادهم وعتادهم، وما كانوا يقابلون دعوة الدين الجديد بدعواهم فى آبائهم وأجدادهم، فلم ينزل فى رؤساء قبيلة مثل ما نزل رؤساء هذه القبيلة، ولم تتمثل منعة قوم كما تمثلت منعتهم فى ردود القرآن على أقوالهم، وهى أقوى ردود عرفت فى السور المكية الأولى، على ما جاء فى الآيات الكثيرة من سورة "ن" وسورة المدثر وسورة الكافرون، عدا إشارات أخرى فى سورة الحجر وعبس وتولى.

وكل أولئك فحواه شىء واحد، وهو أن نبى مخزوم باءوا[1] بأسباب المحافظة على القديم جميعا حين تصدى الإسلام لتبديل ذلك القديم، فهم أول من يصاب بها الدعوة الجديدة وآخر من يلبيها وله مندوحة[2] عنها، ومن ثم كانت المصاولة بين الإسلام والجاهلية فى وجه من وجوهها مصاولة بين محمد عليه الصلاة والسلام وبين خالد ابن الوليد الذى انتهى إليه شرف الرئاسة المخزومية فى ذلك الأوان. والناس يختلفون فى تمثيل بيئاتهم غاية الاختلاف، ويصدقون فى تمثيلها غاية الصدق وهم يتفاوتون بينهم تفاوت النقيض والنقيض. لأن البيئة مستودع شامل يوجد فيه الحس والردىء، ويأكل كل منه على حسب مأتاه وموارده، وحسب ما هو مستعد له وقادر عليه.

فإذا قيل سيد من سادات قريش أو نموذج القرشية الجاهلية جاز لنا أن

---

(١) باءوا: رجعوا، المراد أنهم تحملوا أعباء المحافظة على القديم.

(٢) مندوحة: يقال (لك عن هذا الأمر مندوحة) أى سمعة وفسحة، والمراد أنه كان لنى مخزوم ما يبرر عدم تلبية الدعوة الجديدة.

تتمثله على ألوان كثيرة لا على لون واحد، وجاز أن يكون هذا السيد خير السادات من طبقته أو شرهم وشر أهل زمانه فى جميع الطبقات..

ولكننا مع هذا قد نحصر الخصال المشتركة والنعوت الوسطى التى تشيع فى هؤلاء السادات غير من تجاوزوا الحد وبلغوا الندرة فى الشذوذ والاستثناء.

فالغالب على هؤلاء السادة أنهم يتوارثون الثقافة العربية ويتدارسونها بالتعليم والتلقين والمعاشرة، ويستوعبون أخبار الحكماء وذوى الأحلام فى علاج المشكلات وتدبير الحيل ومصانعة الناس[1] والأيام.

ويكثر فيهم أن يجمعوا الثقافة السياسية والعسكرية كما وصلت إليهم من تراث الأقدمين من عرب وعجم، وبخاصة من كان منهم منوطا بعدة الحرب وقيادة القبيلة فى غزواتها أو مواقف دفاعها، كما كان خالد بن الوليد.

ومن صفاتهم الشائعة فيهم حب السيطرة والصرامة، وقلة الرحمة، والاستزادة من المال ومتع الحياة، والتفاخر بالوفر والثراء وجمع الحطام من حيثما اجتمع بأساليبهم التى كانوا يستجيزونها ولا يتحرجون منها، وأشيعها الربا والمغالاة بالأسعار. وقد وجد فى أسرة خالد من يكثر من الإقراض بالربا، ومن يرى فى أموال الربا شيئا نس يقاربه فى أحوال ويستبعد فى أحوال أخرى فمات أبوه وله على قبائل مكة وأرباضها[2] ديوان تحسب بالألوف لم يزل خالد يتقضاها حتى أسلم وأسلم المدينون، فبرك الربا من بعدها واكتفى برأس المال عملا بالقرآن الكريم: "يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما أبقى الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم روس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون".

وكذلك وجد فى أسرته من نزه الكعبة أموال الربا وما شابهها فقال

---

(١) مصانعة الناس: المصانعة: الرشوة، ومصانعة استمالتهم.

(٢) أرباضها: أرباض المدينة: ما حولها، جمع (ربض) بفتحتين.

لقومـه: "يا معـشر قريـش.. لا تدخلوا فى أبنائها من كـسبكم إلا طيـبا لا يدخل فيه فهو بغى ولا يبغ ربا ولا يبع أحدا" وكلهم قرشى جاهلى من طبقة السادة وأصحاب المال.

فحين نقول إن خـالدا كان مثال طبقتـه وعنوان المحافظة على مزايا هذه الطبـقة يحـسن بنا أن تتجـه إلى تلك الخـلائق الوسطى وترقب منه نماذجهـا المشتركة التى لا غلو فيها من هنا أو هناك، حتى نرى دلائل الزيادة فى خليقة من تلك الخلائق، فذاك إذن خـاصته التى يتميز بها بيـن قرنائه، ولا تخرجه من معهود الطبقة كلها على الإجمال.

ولا يتم الكلام على تراث بنى مخزوم حتى نضيف إلى مزاياهم المختلفة مزية ملحوظة لها شأنها فى كل مجتمع إنسانى، وليس شأنها بالقليل فى حياة خالد على التخصيص.

فقد كانت هذه القـبيلة على كثرة الأقطاب بين رجالها مشـهورة بجمال النساء بين الحواضـر العربية، وبقيت لهـا هذه الشهرة إلى ما بعـد قيام الدولة العباسيـة، إذ كان يقال لبى العباس السفاح: إن المخزومـيات رياحين العرب، وعندك منهن يا أمير المؤمنين ريحانه الرياحين..

ولا يدع يكون هذا شأن القبيلة التى نبغ منهـا خالد بن الوليد وعمر بن أبى ربيعـة. فقديما كـانت الفروسيـة والغزل والمرأة بيئة واحـدة تتعاون فيـها البطولة والشاعرية والجمال.

وصفوة هذا جميعـه أن خالد بن الوليد قد دخل الإسلام بأوفى نصيب من حمية السيادة العربية فى عـهد الجاهلية، فصنع للإسلام وصنع الإسلام له الأعاجيب، وكان مقياس العبقرية العربية فى عهدين متقابلين.